



أمازيغية

من هنّات التوثيق الاستمزاغي لمآثور الريف وصنهاجة سراير: مدونات "أ.رينيزيو" نموذجاً

د. جمال أبرنوص

أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي/ باحث في اللغة والثقافة الأمازيغيتين

" بموت شيخ إفريقي، تحترق مكتبة" (مثل إفريقي)

إن إلقاء نظرة سريعة على المنجز النقدي والتوثيقي الذي حظي به المآثور الشفوي الريفي، كاف لتلمس الصعاب والالتباسات العديدة المحيطة بموضوع "العلامة"، ومن ثم الوقوف على أشكال مختلفة من أشكال الاختلال القرائي، التي يواجهها الباحثون في الموضوع والمجال.

سنحاول عبر هذا المقال الموجز تسليط الضوء على بعض من ملابسات التوثيق الخاصة بهذا المآثور، وبيان أثر معطيات التوثيق في بناء الأحكام والاستقرارات، وذلك في أفق التأسيس لتصور



جديد ينهي مع عهد التدوين العفوي، والتعامل الحدوسي مع المادة التراثية (القولية وغير القولية)، ومن ثم القطع مع كل فعالية لاواعية خاضعة لسلطان الحساسية الخصوصية *L'idiosyncrasie*. وستتخذ متكأ وشاهدا على هذه الدعوى مؤلفا كولونياليا فريدا، كان له فضل إنقاذ مادة أدبية ولسانية ريفية هامة، ونعني المؤلف الموسوم بـ "Etude sur les dialectes berbères des beni iznassen du Rif et de Senhaja de Srair"، للمستمرغ الفرنسي "أ.رينيزيو A.Rénisio"¹.

1. نبذة عن المؤلف

يقع المؤلف موضوع الحديث في 465 صفحة من القطع المتوسط، وهو عبارة عن دراسة لسانية (فونيتيكية وفونولوجية) بنوية وتقابلية في آن معا لتتويعتين لسانيتين ريفيتين، هما تتويعتا "أيث يزناسن"² و"صنهاجة السراير"³، الاتحاديتان القبليتان الواقعتان على حدود مجال الريف التاريخي⁴. ويضم المؤلف أيضا ملحقا هاما ضمنه الباحث مادة أدبية تقليدية موزعة بين: الحكاية والشعر والمثل. قام بتدوينها باعتماد الألفباء اللاتيني مضافا إليه حروف عربية للإحالة على الحروف الحلقية.

II. منزلقات التوثيق المطردة في المؤلف

يكفي إجراء قراءة سريعة لمجموع المدونات التي ضمها المؤلف للوقوف على أنواع من الصعوبات القرائية، وتجليات مختلفة من المعوقات التي تحول دون استكناه التأويل الدلالي الصائب والمناسب. وعموما يمكن توزيع هذه المنزلقات إلى فئتين:

1. منزلقات موصولة إلى الخبر الفونو-غرافي

ونعني بها تلك المنزلقات الناشئة عن الخيارين الخطي والإملائي اللذين اتبعهما الباحث، من قبيل اعتماده على صيغة تدوينية تتأرجح بين الكتابيتين: الفونيتيكية (التي تروم إعادة إنتاج المنطوق



بتفاصيله)، والفونولوجية (التي لا تولي بالاً للاختلافات الصوتية إلا ما امتلك منها صفة التمييزية)، وهكذا أهمل الباحث الصوامت النفثية Les spirants التي تميز أمازيغيات الشمال جميعها (tazizwit عوض tazizwit)، لكنه ظل حريصاً على إثبات الحركة المختلطة Le Schwa في كل مواقعها داخل المقاطع، بما في ذلك موقعها في مفتتح المقطع (ennes).

إلى جانب هذا التردد بين الصيغتين المذكورتين، نسجل أيضاً وقوع الباحث في أخطاء كثيرة عند تدوينه للمفخمات Les emphatiques (المطبقات)، وإغفاله للكثير من المدغمات Les gémínées. وهو ما زاد من معدل الاختلال القرأني الذي وسم المؤلف، قياساً مع مؤلف المستمزغ الفرنسي "صامويل بيارناي S.Biarnay" الذي اعتمد صيغة التدوين الفونيتيكي مستدعياً لذلك قائمة من الحروف من النظام الصوتي العالمي⁵.

من الأخطاء الواقعة في دائرة الكلام نفسه نذكر أيضاً عدم استناد الباحث إلى قواعد معينة بخصوص تفكيك سلسلة القول (أو ما يعرف بأوفاق الوصل والفصل الإملائي). إذ لجأ الباحث في حالات عديدة إلى إدماج الأدوات الأحادية القطعة (مورفيمات: حديثة-زمنية، وظيفية...) في كلمات الفئات الكبرى (أسماء، أفعال...) التي تتحكم فيها، بحيث تشكل جسماً خطياً واحداً، متأثراً، على الأرجح، بإملائية اللغة العربية (التي يتم فيها إدماج بعض الأدوات المشار إليها مع كلمات متعلقة بها، ومن أمثلتها الضمائر المتصلة مثلاً، وبعض حروف الجر). وهكذا كتب الباحث مثلاً:

izzenz išem عوض izenzišem
d dduxan عوض dedduran

وهو ما أدى إلى نشوء التباسات قرأئية عديدة مردها إلى اختلاف وضعية هذه الأدوات في اللغة الأمازيغية، عن نظيراتها من اللغات ذات القرابة من الناحية التنميطية (العربية الفصحى والعبرية)، "إذ أن مجمل هذه الأدوات غير ثابتة تركيبياً، بمعنى أنها تنتقل، في بعض السياقات المحددة بدقة تركيبياً، وتصدر لكي تلتصق بعنصر قبل-فعلي في تمام مستهل القضية"⁶.



2. منزلقات مرتبطة بشح المعطيات السياقية والتاريخية

ونعني هنا مجموع المعطيات التوثيقية التي يفترض أن يتم بها تصدير المدونات بإطناب، يسهم في تأويل الملفوظات تأويلا دلاليا "صحيحا"، إذ يلاحظ بجلاء أن الباحث كان مُقلا في إدراج مناسبات النصوص وحيثياتها السياقية والتاريخية وملابساتها الإثنوثقافية المختلفة، معرضا عن توصيف أشكال التعبير التي تحاith الإنجاز القولي (تعبيرات جسدية، طقوسية، موسيقية، تلفظية...)، وهو ما يظهر من خلال ارتهانه بالنص واكتفائه بذكر اسم القبيلة التي جمعت منها المدونات (أو التي ينتمي إليها الراوي أو الإخباري L'informateur)، وعدم إشارته إلى ملابسات مدوناته إلا في حالات معدودة، كقوله مثلا: "سافر رجل مع ابنته، فاعترضته جماعة وأشبعته ضربا، وعندما اقتربت منه ابنته لتساعده على النهوض، أنشد هذه الكلمات باكيا فقره وحظه العائر"⁷. ولعل سبب سكوت الباحث عن هذه المعطيات، وعدم سعيه إليها راجع إلى طبيعة تكوينه الأكاديمي الذي تظهر منه نزعتة اللسانية، وميله البنيوي، بدليل عنوان المؤلف وموضوعه ومنهجه، وكذا رهانه الإيديولوجي الكولونيالي.

III. أثر الخطأ التوثيقي في بناء الاستقراء الخاطئ

إن ما عرضناه من أمثلة وشواهد كاشفة لمنزلقات التوثيق، ليس الغرض منه تقييم مستويات الدقة والرصانة في هذا المؤلف، وليس استعراض قدرة الميئانص المنهجي الحديث على كشف عيوب المؤلفات القديمة، ولكن الهدف منه التنبيه إلى أثر الأخطاء والمنزلقات التوثيقية في نشوء الأحكام والاستقراءات الخاطئة والمضللة. والذي دفعنا إلى ذلك وقوفنا على ما نعتبره أخطاء في صياغة المقترحات والأحكام، وقع فيها باحثون استندوا إلى المتن الأدبي التقليدي الذي دونه "أ.رينيزيو" في مؤلفه موضوع المداخلة.



من أمثلة هذه الأحكام، نورد الرأي الذي صاغه الباحث عبد الله بونفور بخصوص البنية العروضية الخاصة بالشعر الريفي التقليدي، وذلك من خلال تفكيكه للشاهد الشعري الذي دونه المستمزغ "أرينيزيو" على هذا النحو:

a tarbat isobhen isiy eddnub ennes

amen tisi telyemt erhil elled ennes

وتعريبه على هذا النحو:

الغيداء الجميلة، ** تحملت وزر آثامها.

كما تتحمل الناقه ** (ثقل) أمتعة أهلها !

إذ خلص الباحث بعد إعماله لقواعد القياس العروضي Règles de mesure métrique، إلى خضوع هذا النمط الشعري لثمانين عددي خاص قوامه وجود أحد عشر مقطعا في كل بيت⁸. وهو ما يظهر من خلال معطيات الجدول أسفله:

	مق 11	مق 10	مق 9	مق 8	مق 7	مق 6	مق 5	مق 4	مق 3	مق 2	مق 1	** مق
ب 1	nns	nub	yd	si	ni	bh	su	ti	ba	tar	a	1
ب 2	nns	lal	ll	hi	tr	ym	tl	si	ti	mn	a	2

** مق: مقطع

ب: بيت



وهذا رأي غير دقيق، بدليل شذوذه عن قاعدة إجماع الباحثين الذين قاربوا عروض النظم الريفي، والذين وقفوا على بنائه الإثني عشري (يتكون الإيزلي الريفي من بيتين شعريين يضمنان إثني عشر مقطعا)⁹.

أما سبب وقوع الباحث في هذا الخطأ العروضي، فيرجع إلى منزلقات التوثيق التي سقط فيها مدون النص الشعري، ذلك أن الصواب أن يقطع الإيزلي على هذا النحو:

a tar ba ti sub hen i siy edd nu ben nes
a men ti si tel yemt err hil nel la len nes

وذلك كي تتبين بنيته العروضية، وتتضح بجلاء أشطره الأربعة ومقاطعها الأربعة والعشرون (إثنا عشر مقطعا في كل بيت). والحق أن الطريق إلى هذا التقطيع مستعص بسبب أخطاء الإملائية الواردة في النص-الشاهد من جهة، وعدم ملاحظة إمكانية تشطير الإيزلي إلى أربعة مقاطع عروضية-تركيبية. وهذه سمة فنية لم ينتبه إليها المدون لما أسلفناه من الاعتبارات، ولم يفعل الباحث أيضا بسبب عدم تمكنه من أمازيغية الريف.

في نفس السياق أيضا، أي في سياق الأخطاء التي وقع فيها الباحثون الذين اتخذوا مؤلف "أ.رينيزيو" مادة مصدرية، نورد أيضا خطأ وقع فيه الباحث الجغرافي الفرنسي "جيرار مورير Gérard Maurer"، والذي اقتبس من المؤلف المذكور إشارة تاريخية وردت في حكاية عجيبة (نص وظيفي)، وصاغ من خلالها رأيا تاريخيا يخص قبيلة "أيث بونصار"، إحدى القبائل المشكلة لاتحادية صنهاجة السراير، وفحوى هذا الرأي أن هذا الفرع القبلي هو أقدم فروع الاتحادية الصنهاجية، وأن تاريخ تشكله حسب الباحث، يعود إلى حدود العصر الموحيدي. وقد توصل الباحث إلى ذلك بتركيب شهادتين تخصان شخصية تاريخية هي "مفتاح بن اعمار"¹⁰، إذ ورد اسم الرجل في مدونة "أ.رينيزيو" باعتباره قائدا على صنهاجة بني بونصار، مثلما ورد في مؤلف تاريخي آخر أن



الرجل عاش خلال العصر الموحد، وهو ما حدا بالرجل إلى صياغة رأيه المشار إليه أعلاه. ولعل منشأ الخطأ الذي لم يتقطن إليه الباحثان معا، هو اطمئنانهما إلى صحة رواية شفوية وحيدة يبدو من خلال تأمل مضمونها، أن روايتها ومعتقداتها لا يتورعون في نسبة بطولات الرجل الصنهاجي المذكور إلى مجال قبيلتهم الحديث التشكل. وهم في ذلك لا يختلفون عن غيرهم من رواة الخوارق والكرامات وحكايات البطولات، الذين يطلبون بذلك التفاخر والتباهي بين القبائل.

IV. مقترحات لتجويد فعل التوثيق ومأسسته

إن ما أوردناه من أمثلة لمنزقات التوثيق وأثرها على دقة الأحكام لا يعدو أن يكون عينة تمثيلية، أردنا من خلالها بيان جدية السؤال وأهميته واستعجالية استدعائه إلى حلبة الدرس والنقاش العلميين. لقد تم التعامل مع المأثور الشعبي بالمغرب بكثير من الاستخفاف، منذ الاستقلال إلى حدود سبعينيات القرن الماضي، وعندما انطلقت مسيرة الاشتغال في مواضيع التراث بداية العقد الثمانيني، كان الرهان الغالب في أذهان الباحثين والمهتمين هو إخضاعه لآليات الاشتغال المنهجي، لبيان الثراء المعرفي الذي يختزنه، وللدرد على خصومه الذين ما فتئوا يزدرون الإبداعات الشعبية، ويتندرون على كل داع إلى احتضانها ورعايتها. أما موضوع التوثيق العلمي لأشكال التعبير التراثي فلم ينطلق إلا خلال العشرية الأخيرة، والفضل في ذلك يرجع أساسا إلى عدد من مشاريع البحث العلمي الأكاديمي، التي احتضنتها جامعات ومؤسسات مغربية معدودة.

والذي يعنينا هنا بعد ما تقدم من الإشارات ليس التأكيد على وجوب إيلاء الموروث الشفوي ما يستحقه من الرعاية، لأنه أمر بديهي ما عاد اليوم في حاجة إلى من يبسط حجبه. إن الذي يعنينا تحديدا من خلال هذه المداخلة هو بيان الأثر الكبير للفعل التوثيقي في صياغة الأحكام العلمية الدقيقة، وتحصيل النتائج الرصينة، ونحن نرى أن الطريق إلى ما نأمله يمر عبر جملة مقترحات وتدابير كفيلة بتجويد العمل التوثيقي ومأسسته، نوردتها تباعا:



تأسيس معهد وطني رسمي راع للتراث اللامادي، يعهد إليه تدبيرُ الفعل التوثيقي بشراكة وتنسيق مع المؤسسات الجامعية والمؤسسات ذات الصلة، مثلما يعهد إليه أيضا اقتراحُ الصيغ العلمية لاستثمار التراث الشفوي، باعتباره رأسمالا لاماديا قادرا على تقديم المساهمة والسند في سياق خلق التنمية البشرية.

تأسيس فروع جهوية على قاعدة التوزيع السوسيوثقافي (وليس الإداري)، وتمكينها بالموارد البشرية المؤهلة في مجال التراث، وبالعتاد المادي والتقني المناسب (حواسيب متطورة، كاميرات، كيموغرافات، أجهزة التحليل الصوتي...).

إخراج الفعل التوثيقي من دائرة الاشتغال العفوي والحدوسي، وإدراج ملابساته وحيثياته بوصفها مواضيع بحثية وأوراش تكوينية، تقام على هامش كل الملتقيات والمهرجانات والندوات والأيام الدراسية، التي يتم تخصيصها لمواضيع التراث الشفوي.

خلق مكتبة رقمية لتوثيق التراث الشفوي، يتم فيها عرض المادة التراثية عرضا علميا يستجيب لمتطلبات الباحثين والمهتمين المغاربة والأجانب (أساتذة، طلبة، مبدعين، مسؤولين عن التدبير...).

فتح عدد ملائم من وحدات البحث والتكوين الجامعي (ماستر، دكتوراه) في قضايا التراث الشفوي، وتمكين الطلبة الجامعيين من تكوينات عالية الجودة.

إدراج مواد دراسية مستلهمة من مواضيع التراث الشفوي، لطلبة السلكين الجامعيين الأول والثاني.

عقد شراكات جامعية مع مؤسسات دولية ذائعة الصيت في مجال تدبير التراث الشفوي (وبخاصة دول شرق آسيا التي قطعت أشواطاً مهمة في هذا المجال: اليابان، كوريا...).

إحداث منظومة "الكنوز الانسانية الحية"¹¹ بالمنطقة، والمصارعة إلى توثيق ما تختزنه ذاكراتها من الروايات والشهادات والإفادات.



صياغة خرائط وشبكات كاشفة لإيقاعات الجمع والتوثيق بمجال الريف وصنهاجة السراير، بحيث يتم توجيه الجهد التوثيقي بشكل عادل ومتوازن بين المجالات الجغرافية من جهة، وبين المواضيع والأنماط وأشكال التعبير التراثي المختلفة من جهة أخرى. ونحن نسجل وجود تفاوت لافت بهذا الخصوص، من علاماته تهميش بقاع ومواضيع، ورعاية أخرى (ينظر مثلاً بيبليوغرافيا الدراسات التراثية المنجزة حول قبائل: مطالسة، آيث بويحيي، صنهاجة السراير، بني بوزكو، الزكارة، آيث عمارث..، وتلك المنجزة في فلك مواضيع من قبيل: الأحجية، النكتة، الأشكال الفرجوية ما قبل المسرحية.. لتلمس الفراغ المريع الذي يسم هذه المجالات والمواضيع).

هذا ويمكن القول، ختاماً على سبيل الجزم، بحاجة التراث الشفوي للبلد (واللامادي عموماً) إلى مناظرة وطنية يشارك فيها المتدخلون في المجال، وذلك بهدف بلورة مشروع وطني متكامل يقطع مع كل صيغ الإقصاء والتمييز، ويفتح المجال للاستفادة من تجارب الآخرين في المجال، ويؤسس لأساليب جديدة في مجال تدبير الموروث الشفهي وتطوير آليات توثيقه والاشتغال عليه.

الهوامش:

- Amédée Rénisio, *Etude sur les dialectes berbères des beni iznassen du Rif et de Senhaja de srair*, Leroux, Paris, 1932.

2- تعتبر قبيلة آيث يزناسن من القبائل الريفية الأولى التي أفرد لها المستمزعون بحثاً مستقلة، إذ خصص لها "ريني باسي R.Basset" عام 1898 دراسة لهجية مقتضية تقع في 14 صفحة.

- Basset R, « Notice sur le dialecte berbère des Beni Iznacen », *Giornale della societa asiatica italiana*, t. 11, 1898, pp. 1-14.

ولعل مرد ذلك إلى وقوع القبيلة في مجال الاستعمار الفرنسي، الذي يسهل تلمس تفوقه الحضاري عن نظيره الإسباني، الذي احتل متأخراً مجال الريف الواقع غرب نهر ملوية.

3 - لم تحظ قبائل الاتحادية الصنهاجية (إلى جانب قبائل ريفية أخرى) بعناية مستمزي المرحلة الكولونيالية وما قبلها، لاعتبارات جغرافية متصلة، على الأرجح، بموقعها البعيد عن الساحل، وأخرى جيواستراتيجية استوجبها خلفيات المشروع الاستعماري للمنطقة. بيد أن المؤلف موضوع المقال يظل مصدراً قيماً ونخيرة نصية على درجة كبيرة من الأهمية؛ فيفضله سيتمكن الباحثون المتخصصون في الألسنية من تلمس مسيرة الإبدالات الدياكرونية التي عرفتها تنويع الاتحادية القبلية، مثلما سيكون متاحاً أمام الدارسين في الأدب الشفوي والتقليدي مقارنة قدر من التحولات التي مست الإبداع الأدبي التقليدي للمنطقة، بل وسيستطيع الباحثون في القضايا السوسيو تاريخية أن يميظوا اللثام عن بعض البنيات السوسولوجية التي ميزت المنطقة، وذلك باستقراء المتن الأدبي الذي يوفره المؤلف واستكناه طبقات المعنى التي تعمل داخله، إذا كان منطلق الدارس إيمانه بوجود علاقة انعكاس بين الأدب والمجتمع الذي يحضنه.



4 - نعني بالريف التاريخي، في هذا المقام، ما آلت إليه حدود مجال الريف خلال بداية القرن الماضي، أي إبان جمع المؤلف لمادته اللسانية وتدوينها.

5 - من قبيل : Ø = ذ مثلاً.

- ينظر بهذا الخصوص:

- Biarnay Samuel Léonard, *Etude sur les dialectes berbères du Rif*, E.Leroux, Paris, 1917.

6 - مفتاحه اعمر، عائشة بوججر وآخرون، **خط وإملائية الأمازيغية**، ترجمة فؤاد ساعة، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، 2010. ص.91.

7 - Amédée Rénisio, *Etude sur les dialectes berbères des beni izonassen du Rif et de Senhaja de srair*, Op. cit, p.248.

8 - Abdellah Bounfour, *Introduction à la littérature berbère traditionnelle, 1.Poésie*, Paris: L'Harmattan/Inalco, Coll. «Bibliothèque des Etudes Africaines». 2011, pp. 146,147.

9 - ينظر بهذا الخصوص:

- Mohamed Elmedlaoui, « Questions préliminaires sur le mètre de la chanson rifaine », *Etudes et documents berbères*, N 24 (Décembre 2006), Paris.

10 - Maurer Gérard, « Les paysans du haut Rif central », *Revue de Géographie du Maroc* (R.G.M). n°14, 1968. P.58.

11 - لفظ "الكنوز الإنسانية الحية" صك من قبل مؤسسة اليونيسكو في إطار اتفاقية دولية تعود إلى سنة 2003 للدلالة على "الرواية والإخباريين الذين يحتفظون في ذاكراتهم بمادة تراثية غزيرة وإفادات تاريخية تخص المجال الذي نشؤوا فيه". وتدعو هذه الاتفاقية إلى إحداث منظومات وطنية " للكنوز الإنسانية الحية". هذا وتجدر الإشارة إلى أن المغرب قد وقع على هذه الاتفاقية سنة 2006.